الباب الثالث

طراز العصر الأموى فى أسبانيا

١٣٨ – ٤٢٢ هـ – ٧٥٦ – ١٠٣١م

تمكن « عبد الرحمن بن معاوية » بن الخليفة « هشام » الأموى من النجاة من بطش العباسيين والفرار إلى شمالى أفريقيا ثم إلى أسبانيا . واستطاع فى عام ١٣٩ هـ – ٧٥٦ م تأسيس دولة أموية عربية ذات حكم مستقل فى الأندلس . واختار « عبدالرحمن الأول » مدينة قرطبة عاصمة لهذه الدولة . وكانت تعتبر من أهم مراكز الحضارة الثقافية فى العالم الإسلامى بعد مدينة بغداد . وبالرغم من أن الأندلس فتحها العرب منذ عام ٩٢ هـ – ٧١١ م إلا أنه لم تظهر بها آثار الحضارة الإسلامية وفنونها إلا بعد أن صارت قرطبة عاصمة للحكم الأموى الغربى . وكان ذلك بدء ظهور طابع إسلامى عربى فى قرطبة .

تبدأ فى القرن العاشر الميلادى أهم مرحلة فى تاريخ الفن الأموى فى الأندلس وذلك فى فترة حكم الخليفة « عبد الرحمن الثالث » (الناصر) (٣٠٠–٣٥٠ هـ) – (٩١٢ – ٩٦١ م) ، الذى نادى بنفسه خليفة المسلمين بعد أن شاهد ما انتاب الخلافة العباسية من ضعف . وكانت قرطبة فى عهده وفى عهد « الحكم الثانى » من أجمل المدن الإسلامية التى نافست بغداد عاصمة الخلافة العباسية . ولقد ازدهرت الحياة الثقافية فى أسبانيا لمدة الثلثمائة سنة التى استقر فيها الحكم للأمويين ، وامتد نفوذهم إلى شمال أفريقيا . ولكن حكم هذه الدولة العربية انتهى فى عام ٤٢٢هـ – ١٠٣١ م باستيلاء عدد من أسر البربر المسلمين الذين يحكمون فى شمالى أفريقيا على حكم بلاد الأندلس ، وهم قبائل ملوك الطوائف ، والمرابطين ، والموحدين .

العمارة :

عمارة المساجد :

يعتبر جامع مدينة قرطبة الكبير الذى شيده « عبد الرحمن الأول » فى عام ١٦٩ — ١٧٠ هـ ٧٨٥ — ٧٧٦ م من أجمل العمائر الإسلامية ، وكان تصميمه (تصميم ح) مستمداً من المسجد الأموى بدمشق (تصميم ب). ولقد جدد هذا المسجد فزيدت مساحته عدة مرات إلى أن بلغت الضعف ، وكان من نتيجة هذه الزيادات أن خرج تصميم المسجد عن النموذج المحورى الأموى . وكانت أهم زياداته فى عصر « الحكم الثانى » عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م حيث أضيفت له سبع بلاطات فى الجهة الجنوبية لرواق القبلة . كما أضاف عليه « عبد الرحمن الثالث » مئذنة فى عام ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م ، ويعتبر المسجد بشكله الحالى أكبر جامع إسلامى بعد جامع سمراء . ويحيط بالفناء المكشوف من الجهة الشمالية أروقة ذات عقود ، ومن الجهة الجنوبية يوجد رواق القبلة الذى يضم ١٩ بلاطة ، ويرتكز السقف على ١٨ باكية تتكون من دورين من العقود فوق بعضها . ويصل العقد الأسفل بالعقد الأعلى زوج من الأعمدة الصغيرة ترتكز على الأعمدة السفلية ، ولكثرة الأعمدة الموجودة برواق الجامع شبه أحياناً بالغابة (شكل ٦٠) . ويلاحظ أن عقوده متعاملة مع جدار القبلة ، كما استبدل شكل العقد المستدير بعقد على هيئة حدوة الحصان ربما تكون فكرته مقتبسة من العمارة القوطية الغربية . ونلاحظ أن العقود السفلى مشرشرة وتشبه نيجان بعض الأعمدة مثيلاتها فى العمارة القوطية وذلك لأن أغلبها منقول من أماكن قديمة . ولقد ظهر ابتكار جديد فى هندسة القبة الموجودة فوق المحراب حيث قسمت جدرانها إلى أشكال ثمانية ورباعية متقاطعة (شكل ٦١) .

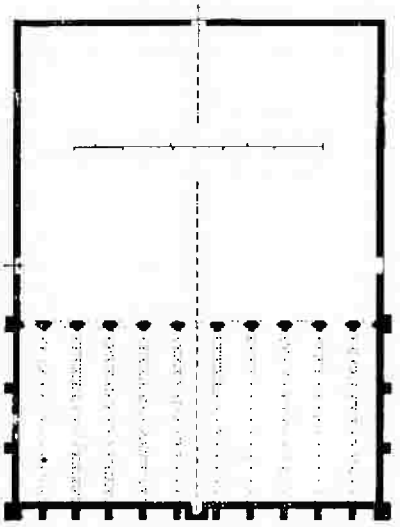

ح — تصميم جامع قرطبة

عمارة القصور :

شيد الحكام الأمويون قصراً ليكون مقرًّا للخلافة فى قرطبة وزيد فى بنائه فى القرن العاشر الميلادى . ومن أحسن القصور الأموية ، القصر الفخم الذى شيده الخليفة « الناصر » بمدينة الزهراء قرب قرطبة . ويمتاز هذا القصر بزخارف جميلة منحوتة على جدرانه تتكون من عناصر نباتية مزهرة ، وتظهر فى هذه الزخارف الأساليب البيزنطية التى عرفت فى سوريا فى العصر الأموى ، كذلك بعض الأساليب الفنية المحلية القوطية . ويلاحظ أن تأثير الفن العباسى المعاصر المنتشر فى بلاد الشرق الإسلامى لا يظهر فى هذه الزخارف .

الزخارف المعمارية :

النحت على الحجر والجص الفسيفساء :

استخدم الأمويون فى أسبانيا طريقة زخرفة الجدران بالنحت على الحجر والجص ، ومن أحسن أمثلة أساليب النحت على الحجر لوحتان رخاميتان أقامهما الخليفة « الحكم » على جانبى محراب مسجد قرطبة . ويلاحظ فى زخارف هذه الألواح تفريعات النبات الدقيقة التى تتكون من نبات الأكانتاس مع تفريعات المراوح النخيلية وشجرة الحياة (شكل ٦٢) . كما يظهر بها ميل الفنان إلى إزالة المادة وذلك بتغطية السطوح بالزخارف المزدحمة وعدم ترك مساحات خالية : وهذا من أهم مميزات الفن الإسلامى . ويتضح من دراسة عناصر الزخارف تأثرها بالفن الأموى الذى عرف قبل ذلك بقرنين فى سوريا . ويتكرر ظهور هذا الأسلوب فى زخارف الجص التى عثر عليها فى قصر الزهراء (ش ٦٣) وفى زخارف الفسيفساء التى تغطى محراب المسجد (ش ٦٤) .

الفنون الصغيرة :

النحت على العاج :

من أحسن ما أنتجه الفن الأموى الغربى بعض علب من العاج مزخرفة بنقوش مزدحمة تغطى جسم العلبة وغطاءها ، ويلاحظ أن الحفر غالباً ما يكون عميقاً .

(شكل ٦٠ ، ٦١)
حرم جامع قرطبة . ولقد تم تشييد قبة المحراب الموجود فى أسفل اللوحة ، فى عهد الحكم الثانى ، العصر الأموى فى أسبانيا ، القرن ٤ هـ – ١٠ م .

(شكل ٦٢)
لوحة رخامية منقوشة بزخارف نباتية بجوار محراب جامع قرطبة الأموى .

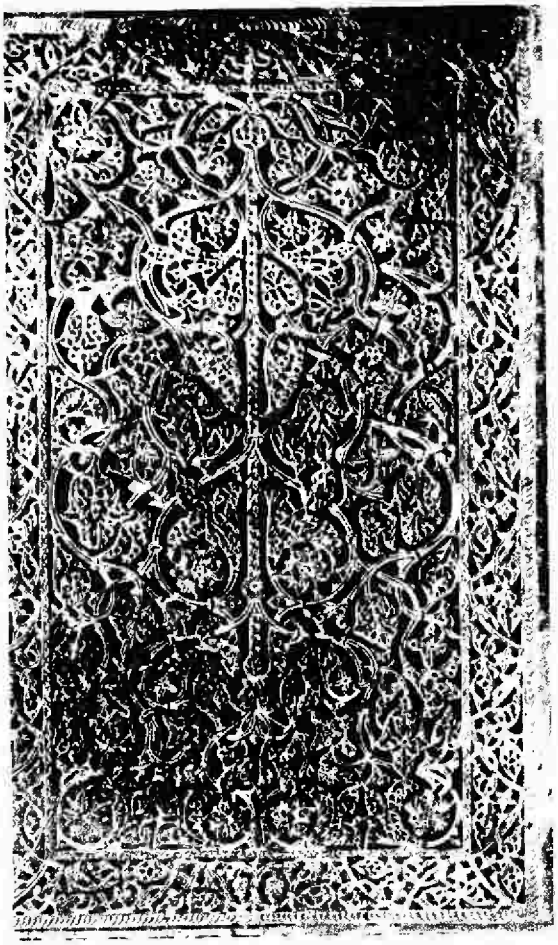

(الشكل ٦٢)

خارف جصية من قصر عبد الرحمن الثالث بمدينة الزهراء ، القرن ٤ هـ / ١٠ م ، العصر الأموي بإسبانيا

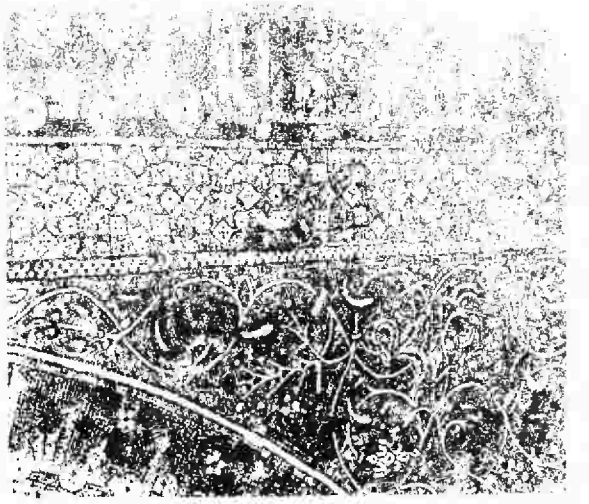

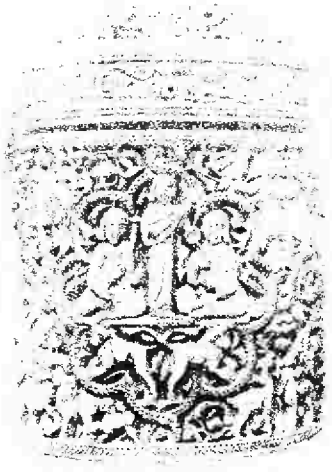

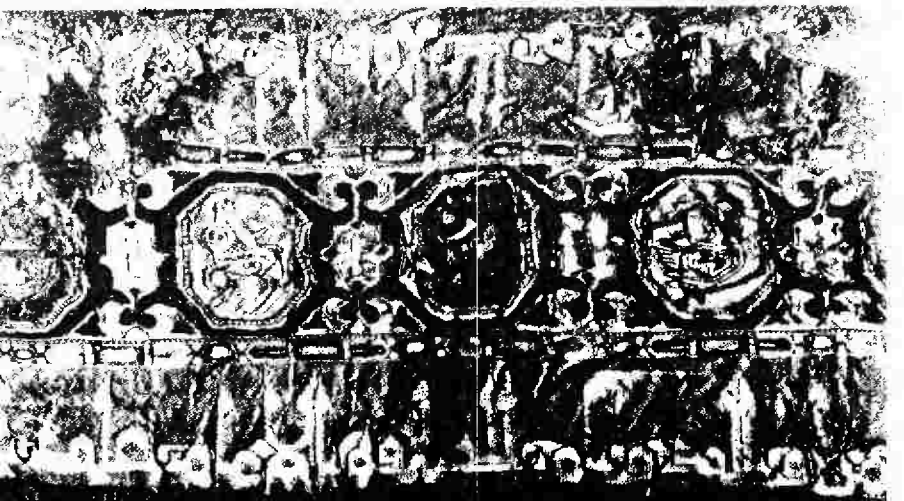

(الشكل ٦٠)

نسيج من الحرير تخص هشام ... زخارف حيوانية ، العصر ... سبانيا ، حالياً أكاديمية ... بمدريد .

وتشمل الزخارف موضوعات الطرب فى البلاط كما تصور مناظر الصيد ، ويحمل الكثير من هذه العلب تاريخ صناعته وأسماء أصحابها . ويرجع مؤرخو الفنون آن مكان صناعة العلب التى ترجع إلى القرن الرابع وبداية الخامس الهجرى – العاشر الميلادى – مدينة قرطبة ، أما العلب التى صنعت فى القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر الميلادى فتنسب إلى مدينة «قونية». ومن أجمل التحف العاجية التى صنعت فى قرطبة علبة خاصة بالأمير « المغيرة » ابن الخليفة « عبد الرحمن الناصر » . ويغطى سطح العلبة زخارف دقيقة وضعت فى مناطق ذات ثمانية فصوص ، نرى فى إحداها (ش ٦٥) الموضوع الرئيسى وهو يصور شخصين جالسين على أريكة يحملها حيوانان متدابران ، ويقف وراء الشخصين سيدة تحمل آلة موسيقية . ويزخرف باقى السطح زخارف ذات عناصر آدمية وحيوانية ونباتية مأخوذة من موضوعات الصيد والطرب .

أما العلب التى صنعت فى قونيه فى القرن الحادى عشر الميلادى فيبدو فى زخارف عناصرها النباتية ، الأسلوب التجريدى كما أن الحفر قليل العمق .

الخزف :

ومن الخزف الأموى الغرنى عثر ، على بعض أوان فى مدينة الزهراء يحتمل أن تكون من صناعة الخزافين فى بلنسية وملقا أو قرطبة ، وتشتمل زخارفها على طيور ووحدات نباتية وعناصر كتابية مرسومة باللون الأخضر والبنى الداكن فوق أرضية بيضاء . كما وجد بهذه المدينة بقايا أوان خزفية ذات بريق معدنى ، يحتمل أن تكون مستوردة من أحد مراكز الخزف العباسية التى اشتهرت بالبريق المعدنى كسمراء أو ما شابهها من المراكز فى إيران .

النسيج :

ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى الأندلس فى العصر الأموى وكانت لها مراكز كثيرة فى مرسيه وأشبيلية والمرية [١] . ولقد وجدت نماذج جميلة لمنسوجات

---

(١) ذكر المؤرخ العربى الإدريسى ١٠٩٩ – ١١٥٤م أن المريه كان بها ثمانمائة مصنع لنسيج الأقمشة الحريرية الفاخرة – قصة العرب فى أسبانيا – على الجارم – دار المعارف ص ١٢٢
Rice, T.D كتاب Islamic Art 1965 ص ٨٢

حريرية من فترة حكم خلفاء قرطبة ومن ذلك قطعة حريرية باسم « هشام الثانى » (٣٦٦ – ٣٩٩ هـ) (٩٧٦ – ١٠٠٩ م) مزخرفة بحامات تضم عناصر حية ذات أسلوب محور (ش ٦٦)؛ كما توجد بعض قطع تزينها زخارف لأزواج من الحيوانات المتقابلة أو المتدابرة فى دوائر .

نستخلص من ذلك أنه نتج عن فتح العرب لأسبانيا عام ٩٢ هـ ٧١٠ – ٧١١ م، بدء اتصال فنون وصناعات الشرق الأوسط الإسلامى بالبلاد الأوربية الغربية ، ولقد بدأت الفنون الإسلامية فى الظهور ببلاد الأندلس فى فترة حكم الخلافة الأموية الغربية . ويتميز هذا الفن الأموى الغربى باحتفاظه ببعض الأساليب الكلاسيكية التى وجدت فى أوائل مراحل الفن الإسلامى فى العصر الأموى الأول ، كذلك بخلوه من نفوذ التأثيرات الفنية الأسيوية التركية التى ظهرت وانتشرت فى فنون بلاد الشرق الإسلامى . وظهرت هذه التقاليد الفنية الإسلامية فى مسجد قرطبة ، كما وجدت به أيضاً بعض الأساليب الأوربية المطورة كالعقود ذات الطابقين . ولقد اختلطت أحياناً بعض الأساليب المحلية – الفن القوطى الغربى – مع عناصر الفن الإسلامى الجديد مما نتج عنه فن أسبانى إسلامى .

ولقد ظهر فى هذا الفن الأموى الغربى أسلوب جديد خاص به استمر فى الأندلس ، وهو الميل نحو تحوير الوحدات الزخرفية ولكن بأسلوب يختلف عن الأشكال النباتية المعاصرة التى عرفت فى سمراء . ولقد ساد هذا الأسلوب الجديد فى جميع ما أنتج من الأشغال الفنية .